

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣ - سُورَةُ النِّجْمِ

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخارى^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع في رواية غيره ، تسمية غير أمية - كما بسطه ابن حجر في (الفتح) - .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة والنجم ، ٤ - باب
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ، حديث ٥٨٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ)

[٢] (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ)

« وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقض . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غويًا ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغى . وذكره ﷺ بعنوان (صاحبهم) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بحاسن شئونه المنيفة . فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤] (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحى إليه . وجملة (يُوحَىٰ) صفة مؤكدة لـ (وَحْيٌ) رافعة لاحتمال المجاز ، مفيدة للاستمرار التجددى . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحي ، وقواه بما فى (مراسيل) أبى داود عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، ويعلمه إياها ، كما يعلمه القرآن . واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعني : كون مرجع الضمير للقرآن ، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (أُفْتَرَنَهُ) والقرينة من أكبر المخصصات . وجلى أنه ﷺ كثيراً ما يقول بالرأى في أمور الحرب ، وأمور أخرى . فلا بد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لا قوة في المراسيل ، لما تقرر في الأصول . وبأن الآية لا تدل على منع الاجتهاد المذكور ، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً . لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً ، لانطقاً عن الهوى . لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ (متى ما ظننت كذا فهو حكيم) أى كل ما ألقىته في قلبك فهو مرادى ، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجهم تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفرادهم . فما قيل عليه من أن الوحي الكلام الخفى المدرك بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادى إلا بعموم المجاز . مع أنه يأباه قوله ^(١) (عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى) غير وارد عليه ، بعدما عرفت من تقريره - نقله في (العناية) عن (الكشف) - وتفصيل المسألة في مطولات الأصول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى)

«عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى» أى علم محمداً ﷺ ملكٌ شديد قواه ، يعنى جبريل عليه السلام . كما قال ^(٢) (إِنَّهُو لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) و (الْقُوَى) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسر ها كالرثا بكسر الراء فى جمع رشوة بضمها ، والحبأ فى جمع حبة - نقله ابن ^(٣) جرير .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] . (٢) (٨١ / التفسير / ١٩ و ٢٠) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ)

[٧] (وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ)

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه . والعرب تقول لكل قوى العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من (أمرت الجبل) إذا أحكمت قتله « فَاسْتَوَىٰ » وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ » قال الزمخشري : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كما هبط بالوحى . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء - كما قال شراحه - سببية ، لأن تشككه يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على (عَلَّمَهُ) أى علمه على غير صورته الأصلية ، ثم استوى على صورته الأصلية . وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرة من الأمور - حكاه القاضى - . قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، لا مصطلح أهل الهيئة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ) يعنى جبريل عليه السلام - قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير^(١) ههنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد . وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استوى جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء - كذا قال - ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه مقاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله^(٢) (أَذَا كُنَّا نُرَبَّأًا

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحامى الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٧] .

وَأَبَآؤُنَا) فغطف بالآباء على السكتى في (كُفَّاءً) من غير إظهار (نَحْنُ) فكذلك قوله (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخِرْعُ الْمَتَفَصِّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تسكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلّى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، يعنى ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (أَقْرَأْ) ثم فترة الوحي فترة ذهب النبىّ صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليردى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبنى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه . انتهى .

أقول : قد وافق القاشانى ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

(فَاسْتَوَىٰ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبىّ بالأفق الأعلى ، لأنه حين كَوَّنَ النبىّ

بالأفق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكّل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية السكبيّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر ، لم يفهم القلب كلامه ، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبىّ ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدرة المنتهى فى التدلى . انتهى .

وكذا المهايى وافقهما وعبارته :
(فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) أى صاحبكم عند استواء نفسه ، صار (بِالْأَفُقِ الْأَعْلَىٰ)
الروحانى . انتهى .

وكذا الفخر الرازى وعبارته :
المشهور أن (هو) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقى ،
فسد المشرق لمظلمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان
العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المكان .

(فَإِنْ قِيلَ : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول ^(١) (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ) إشارة
إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا ؛ أنه ﷺ
رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول :
فوق السطح . أى : إن الرأى فوق السطح ، لا المرئى . و (المبين) هو الفارق ، من (أبان)
أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ
الغاية ، وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحي فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو
واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إلى غير
ذلك ، وقوله تعالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) كل ذلك يدل على
خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى موضعه ، عند ذكر
تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل
عليه السلام أرى النبي ﷺ نفسه على صورته ، فسد المشرق . فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبي ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرق وسدّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازي .

وفي القرطبي حكاية أقوال آخر ، وعبارته :

(فَاسْتَوَى) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه في السماء ، بعد أن علم محمداً ﷺ

- قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير - .

وقيل : (فَاسْتَوَى) أى قام وظهر في صورته التي خلّق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَاسْتَوَى) أى استوى القرآن في صدره . وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - في صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثاني - في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى (فَاسْتَوَى) فاعتدل . يعنى محمداً في قوّته ، والثاني في رسالته

- ذكره الماوردي - .

وعلى الأول يكون تمام الكلام (ذُو مِرَّةٍ) ، وعلى الثاني (شَدِيدُ الْقُوَى) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثاني - أنه النبي ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : (فَاسْتَوَى) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش - على قول

الحسين - انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال في الآية ، وسيأتى في أول التنبيهات إيضاح

ما اخترناه منها ، وإنما أخرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (نُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)

[٩] (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

« نُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقرب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّى » أى إليه . قال ابن جرير^(١) : هذا من المؤخر الذى معناه التقدّم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله (دَنَا) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلى فزارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبي بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علوّ ، كما هو المشهور . أو هو دنوّ خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل به (أراد الدنو) - كما فى الإيضاح - .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أى كأن مسافة ما بينهما مقدار قوسين . أى بقدرها إذا مُدًّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربة قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقيمه : ما بين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابى قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحداها بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر ، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم يزعانها معاً ويرميان بهما معهما واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدها رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه - كذا قال مجاهد ، وارتضاء عامة المفسرين - انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال السمين : وقوله تعالى (أَوْ أَدْنَى) كقوله ^(١) : (أَوْ يَزِيدُونَ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين في رأى الرأى . أى لتقارب ما بينهما ، يشك الرأى في ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه في رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر في (أَوْ يَزِيدُونَ) فإن المعنى : إذا رآهم الرأى يقول هم مائة ألف أو يزيدون . وقيل : (أَوْ) بمعنى (بَلْ) أى بل أدنى . و (أَدْنَى) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ)

« فَأَوْحَىٰ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبي ﷺ . وإنما أضمّر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلّى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإيهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)

« مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه من الملك الذى جاءه بالوحى من ربه . يعنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق وصدق . وقرئ (ما كَذَّب) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملك ربانى ، لا خيال شيطانى ، كما قال ^(٢) (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية في أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] . (٢) [٨١ / التكوثر / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَفْتَمْرُوهُو عَلَى مَا يَرَىٰ)

« أَفْتَمْرُوهُو عَلَى مَا يَرَىٰ » أى أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانى : أى أفتخاصمونه على شىء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفى والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهاها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة ، فالمراد أنه لا يصح المجادلة فى المرئى ، لأنه لا يجوز الجدل فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ)

[١٤] (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ)

[١٥] (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ)

[١٦] (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ)

[١٧] (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)

[١٨] (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ)

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرة أخرى من النزول ، وتأكيده الخبر عن الرؤية

الثانية هذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه . «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . (المنتهى) : اسم مكان ، أو مصدر ميمي . وقد جاء فى الصحيح^(١) أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبت بالسدر ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها . يعنى أن شجر النبق يجتمع الناس فى ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبت بها ، وسميت (سدر) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . لكن ورد فى الحديث^(٢) أن كل نبتة فيها كقلة من قلال حجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر - قاله الشهاب - .

«عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى» أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال القاشانى : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها . «مَا زَاغَ الْبَصَرُ» أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . «وَمَا طَفَى» أى ما تجاوز حرائقه المقصود له ، بل أثبت ما رآه إنباتاً مستقيماً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسالاته . وفيه غاية التفضيم لقامه ، وأنه من الآيات الكبر . قال الفاصر : ويحتمل أن تكون (الْكُبْرَى) صفة لآيات ، ويكون المرئى محذوفاً لتفضيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى أموراً عظيماً لا يحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ - باب المعراج ، حديث

١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

تنبيهات :

الأول - قدمنا في تفسير قوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) ما قاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى ما في بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازي ومن وافقهما ، وبعض أقوال حكاهما القرطبي . والأقرب في معنى الآية ما ذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه ، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك . ونحن نقول في تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته السكرية وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما في سورة التكويد تمام المشابهة ، فقد قال تعالى ^(١) : (إِنَّهُ وَلَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنو واقتراب لم يذكر في (التكوير) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبي ﷺ في معارج السموات وقتاً فوقتاً . وسورة النجم مما نزل بعد التكوير ، كما حكاه في (الإتقان) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان في (النجم) زيادة هذا التكرير والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ما ينطق به من هذا القرآن ليس عن هواء ، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم ، جم المناقب ، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى . ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيه تنزل من الأفق ، ودنا إليه ، وكان في غاية القرب منه ، والتمسك من رؤيته ، وتلقى الوحى عنه . وذلك كله حق وصدق لا مرية فيه . وكيف يمارى من يرى ببصره ما يصدق فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحى في مكان معين لا يشتبه على رائيه ، وهو سدره المنتهى . وبالجملة ، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لا خفاء به عند المتدبر ، وكاه رد على المشركين المفتريين ، وإقسام على حقيقة الوحى والتزليل ، وصدق ما يخبر به ، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه . فابق بعد التعتن

والجحد إلا انتظار سنة الله في أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له في آخر السورة .
هذا ملخص معنى الآيات ، وما عداه فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوز به مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد - والله الموفق - .

الثاني - ما قدمناه من رجوع الضمائر في قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) ... الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنو والتدلى في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه - كما قالت عائشة وابن مسعود - والسياق يدل عليه ، فإنه قال (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى ، وهو ذو المِرَّة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلى ، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .
وروى البخارى ^(١) في هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح .
وروى الترمذى ^(٢) عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره في صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة في جياذ - مكان بمكة - له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع في حديث شريك في البخارى ^(٣) من قوله (ودنا الجبار رب العزة فتدلى ،

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ٣ - حدثنا

ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٧ - باب قوله وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوّ وتدلّ غير ما في سورة النجم ، تؤمن به . ونفوّض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تسكّم كثير من الناس في رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) ، فهذه هي ليلة الإسراء ، والأولى كانت في الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : وقع في حديث شريك في الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذر قال : يارسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنى أراه . وفي رواية : رأيت نوراً - أخرجه مسلم ^(١) .

وقوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة ^(٢) وعن ابن مسعود ^(٣) . وكذلك هو في صحيح مسلم ^(٤) عن أبي هريرة ، ولا يعرف لهم

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ (طبعنا) .

مخالف من الصحابة في تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القسيم في (زاد المعاد) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) إنما هو جبريل . وصح عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما في لفظ آخر : رأيت نوراً .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا ، ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال : نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ثم قال : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) والظاهر أنه مستفده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل ، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ربي عز وجل ، فإنه حديث إسناد على شرط الصحيح ، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد^(١) أيضاً عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : أنا ناني ربي الليلة في أحسن صورة (أحسبه ، يعنى في النوم) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٤٨٤ (طبعة المعارف) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي (أو قال نحري) فعملت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال قلت : نعم ! يختصمون في الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المسك في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المسكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضني إليك غير مفتون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى ^(١) (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) كقوله ^(٢) (لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع. لأنه قال (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث - ذهب بعضهم إلى أن هذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوي ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقاءه إلى ما فوق السموات السبع ، كما ذكر في أحاديث المعراج من سدره المنتهى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبي : لما كان الإسراء مقدماً في الوجود على المعراج ، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج وما فيه . وكان ما في المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ ما لا يجوز عليه ، فقال « وَالنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

(١) [٥٣ / النجم / ١٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٢٣] .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحي، بأنه تعليم ملك كريم، مرثى للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس، لا لإثبات المعراج.

ثم من الغرائب أيضاً هنا، قول بعضهم محاولاً سرّ إفراة الإسراء عن المعراج، وذكر كلّ في سورة، ما مثاله: إن الإسراء أنزل أولاً وحده، حملاً للمشركين على تسليم ما وضع صدقه ﷺ فيه، توصلاً للتصديق بما وراءه فإنه ﷺ أرشد أن يخبر المشركين أولاً بالإسراء إلى المسجد الأقصى، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك وقع، كما ذكر في الروايات. وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم ألهم ﷺ أن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام، وأنزل الله تصديقه في سورة النجم. انتهى. فكل هذا مما لا سجد له، نعم! روى البيهقي وابن أبي حاتم وابن جرير في حديث مطول؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب. إني أتيت الباحة بيت المقدس، وعرج بي إلى السماء ورأيت كذا وكذا. إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين، ولا حجة في الأخبار إلا مرويهما. وبالجملة، فالمعول عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر في القرآن مطلقاً، وما ورد في هذه السورة وسورة التكويد، فلا علاقة له بالمعراج، وإنما هي رؤية النبي صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم. وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية. لصريح حديث البخاري في ذلك من طرقه التي عن أنس ومالك بن أبي صعصعة. قال بعضهم ولذلك لم يذكر في حديث المعراج، بحسب رواية البخاري التي هي أصح الروايات بالإجماع، أن النبي ﷺ سار أولاً إلى بيت المقدس، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيه أن جبريل فارقه، ثم ظهر له عند سدة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة، وذلك يدل على أن ما ذكر في القرآن مما وقع بقطعة، هو غير ما ذكر في الحديث، مما وقع مناماً في وقت آخر،

وإلا لذكرا معا في سياق واحد ، إما في القرآن ، وإما في أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذي لم يحصل إلا في بعض روايات لا يعول عليها ، وهي من خلط بعض الرواة الحوادث بعضها ببعض . انتهى - والله أعلم - .

ثم قال تعالى مفكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لها البيوت ، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن لعبادة تعالى وحده ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ)

[٢٠] (وَمَنَوَاتُ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ)

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ » قال ابن كثير : هي صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير^(١) : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا (اللَّت) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشري : هي فعلة من (لوى) لأنهم كانوا يلون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا (اللات) بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السوق ، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه . « وَالْعُزَّىٰ » وهي شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى (العزير) وقال الزمخشري : أصلها تأنيث الأعز .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَى » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .
روى البخارى عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير^(١) : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعزى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

تنبيهات :

الأول - قال القاضى : (مناة) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين . ومنه سميت (منى) لأنه يعنى فيها القرابين ، أى ينحر .
وقال الزمخشري : وكأنها سميت (مناة) لأن دماء المناسك كانت تعى عندها ، أى تراق .
وقرىء (مناة) مفعلة من (النوء) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .
فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .
وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو (الثَّلَاثَةِ) للتأكيد ، و (الْأُخْرَى) بيان لها ، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : (الْأُخْرَى) ما ثبت آخرًا ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجودى ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجودى ، إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلى ، بخلاف (آخر) و (آخرة) ، على وزن فاعل وفاعلة ، فإن إشعارها بالتأخير الوجودى ، ثابت لم يغير ، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة ، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودى ، لأن (الأفعل) و (الفعلى) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم ، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما . وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقديم معابر في الذكر مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثاني - قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرت عظمها العرب كعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنجر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكافت لقريش ولبنى كنانة (الْعُزَّى) بنخله ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يَا عَزَّ كُفْرَانُكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

روى النسائي عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبتهم ، أمعنوا في الحيل وهم يقولون : يا عزى ! يا عزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بنى معتب . وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مائة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر ، من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : علي بن أبي طالب . انتهى .

الثالث - قال ابن جرير^(١) : اختلف أهل العربية في وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحوي البصرة يقول : إذا سكت قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللات ، فجعله من اللت الذي يلت . ولغة العرب يسكتون على ما فيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شيء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحوي الكوفة يقف على (اللات) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار في كل ما لم يصف ، أن يكون بالهاء^(٢) (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي)^(٣) (وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ) . وما كان مضافاً فجأز بالهاء والتاء ، فالتاء للإضافة ، والهاء لأنه يفرّد ويوقف عليه دون الثاني ، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها في العرب ، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَلَكُمُ اللَّهُ كَرُوهٌ أَلَا تُنْثَى)

[٢٢] (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)

« أَلَكُمُ اللَّهُ كَرُوهٌ أَلَا تُنْثَى » قال الزمخشري : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، مع وأدهم البنات ، فقليل لهم : (أَلَكُمُ اللَّهُ كَرُوهٌ أَلَا تُنْثَى) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث ،

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٩٨] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٠] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستنسكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تعملون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهن آلهة ؟ انتهى .

لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام في (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرني) وفي كيفية دلالتها على ذلك ، واختلاف النحاة في فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرى ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذى اختاره الرضى . أو علمية ، فكون في محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها في تأويل : أهي بنات الله ؟

قال السمين : وكان أصل التركيب : السكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام . وإنما أوتر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائزة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكروهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .

قال ابن جرير^(١) : والعرب تقول (ضِيزُتُهُ حَقَّةٌ) بكسر الضاد ، و (ضُزْتُهُ) بضمها ، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنمته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير (ضِيزَى) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن على (ضِيزَى) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من (ضازه يضيّزه) إذا ضامه وجر عليه ، فعنى (ضِيزَى) جائزة . وعلى هذا فتحتمل وجهين : أحدهما - أن تكون صفة على (فُعِلَى) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء . كبيض .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والمشرّين (طبعة الحلبي الثانية) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء ، ولم لا قيل (فعلى) بالكسر ؟ .
 فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد في الصفات (فعلى) بكسر الفاء ، وإنما ورد
 بضمها ، نحو حبلى وأنثى ورؤى وما أشبهه ، إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك . حكى ثعلب :
 مشية حيكي ، ورجل كيكي ، وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سعلى ، وهذا لا ينقض على
 سيبويه لأنه يقول فى (حيكي وكيكي) كقوله فى (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسعلى
 فالشهور فيهما عزهاة وسعلاة .

والوجه الثانى - أن تكون مصدراً كذا كرى . قال الكسائى : يقال ضاز بضيز ضيزى ،
 كذا كرى ذكر ذكرى . ويحتمل أن يكون من (ضأزه) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه
 خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياء ، لكنّها لغة
 التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه بضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من
 الأول . و (ضيزى) فى قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصلياً ، لما
 تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل فى (ضئزى) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت
 الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء
 الساكنة وسمع منهم (ضؤزى) بضم الضاد مع الواو والهمزة .
 وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة
 كسكرى وعطشى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى)

« إِنْ هِيَ » أى الأصنام المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها «إِلَّا أَسْمَاءٌ» أى محضة ليس تحتها مما تنبىء هى عنه من معنى الألوهية ، شىء ما أصلاً. أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لانصيب لها أصلاً ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشىء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لاطائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَا » أى جعلتموها أسماء مع خلوها عن المسميات « أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبع « مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى برهان يتعلق به « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى إلا توهم أن ما هم عليه حق « وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » أى تشهيه أنفسهم .

قال ابن جرير ^(١) : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله ، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحي ؛ أن عبادتها لا تنبىء وأنه لا تصالح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل (يَتَّبِعُونَ) أو اعتراض . وأياً ما كان ، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لالحلم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . ومن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتب ، أقبح .

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و ٦٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكمال) : استدل بقوله (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ . . .) الخ على أن اللغات توقيفية . ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء باسموها به ، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون الكل اصطلاحاً منهم . واستدل بقوله تعالى (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ . . .) الخ على إبطال التقليد في العقائد . واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأي على الدين ، فإنما كان الرأي من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

« أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » أى ليس له ما يشتهي من الأمور التي منها طمعه الفارغ في شفاعة الأنداد ، وتعنته في دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهمين يزعجه . فإن ذلك من المحالات في نظر العقل السليم ، كقوله ^(١) (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

« فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى » أى فصير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ما تسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال ^(٢) (وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ

(١) [٤ / النساء / ١٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١]

وَالْأَرْضُ . . .) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبيل السعادة التي لا تخفى على بصير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى)

« وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان ، بإقناطهم عما علقوا به أطاعهم من شفاعاة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأتى لهذه الطواغيت أن تفتت على هذا المقام ، ولها من الذلة والصفار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى » أى تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة فى معنى استغراق المفرد ، أى ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهى تسمية الأنثى ، على وزن (كسانا الأميرحلة) أى كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة ، واستتباع العقوبة فى الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

[٢٩] (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدداً به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم النعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من (الإعراض) هجرهم هجراً جميلاً ، وترك إيدائهم . وقول الزمخشري : أى أعرض عن دعوة من رأبته معرضاً عن ذكر الله ... الخ - لا يصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين ، وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله^(١) تعالى (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التثريب ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى)

« ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم ، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

و (مبلغ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء - كما حققه الشهاب - والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى » أى : ولا بد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزى كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقدير العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تنبيه على سمة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يميزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » أى بالثوبة الحسنى ، وهى الجنة . ثم بين صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاسَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْتَنُّونَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

« الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاسَ الْإِثْمِ » أى ما كبر الوعيد عليه من المفاهى « وَالْفَوَاحِشَ » يعنى ما خش منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا اللَّمَمَ » أى الصغائر من الذنوب . ومثله أبو هريرة بالقبلة والغمرة والنظرة - فيما رواه ابن جرير (١) -

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وأصل معناه : ما قل قدره . ومنه : لمة الشعر ، لأنها دون الوفرة . وقيل : معناه الذنوب من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ما ذكر . أى إلا اللهم بما دون الكبائر والفواحش ، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلاً ، و(إلا) صفة بمعنى غير - وتفصيله فى (العناية) - .

وحكى ابن جرير^(١) عن ابن عباس وغيره ؛ أن معنى (اللهم) ما قد سلف لهم مما أُلوا به من الفواحش والكبائر فى الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .
وعن ابن عباس أيضاً قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا

وقال الحسن : (اللهم) أن يقع الوقعة ثم ينتهى . وكل هذا مما يتناوله اللفظ الكريم والأقوى فى معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتنب الكبائر ، كما قال تعالى^(٢) (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) .
« إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » قال ابن جرير^(٣) : أى واسع عفوهُ للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » قال^(٤) ابن جرير : أى أحدثكم منها بخلق أئبكم آدم منها « وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » أى حينما يصوركم فى الأرحام « فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ » أى تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصى . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياء « هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى » أى بمن اتقاه

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤ / النساء / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح . وهذا كقوله تعالى^(١) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

وفي الصحيحين^(٢) عن أبي بكرة قال : مدح رجل رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مراراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسبي ، ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى)

[٣٤] (وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى)

[٣٥] (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى^(٢) (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أى قطع المطاء بخلاً وشحاً « أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

(١) [٤ / النساء / ٤٩] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ،

٩٥ - باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ، حديث ٦٥ و٦٦ (طبعتنا) .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣٢ و ٣١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ)

[٣٧] (وَإِذْ هَمَّ اللَّذِي وَفَّىٰ)

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِذْ هَمَّ اللَّذِي وَفَّىٰ » أى بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال ^(١) (وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِذْ هَمَّ رَبُّهُ وَبَكَلِمَتٍ فَأْتَمَّهُنَّ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)

« أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آئمة ، فإن إنعما عليها .

قال القاشاني : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت في النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التي هي الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضعافها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)

« وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » أى : إلا سعيه وكسبه .

تنبيهات :

الأول - قال ^(٢) ابن جرير : إنما عني بقوله (أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الذي

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول : ألم يخبر قائل هذا القول ، وضامن هذا الضمان ، بالذي في صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آئمة إثم أخرى غيرها (وَأَنْ لَّنِسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى) أى : وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شراً . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردّاً على ما كانوا يتخرونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجأاً وجهلاً . ومع ذلك ففهموها الشمولى جلي .

الثاني - قال السيوطي في (الإكمال) : استدل به على عدم دخول النية في العبادات عن الحى والميت . واستدل به الشافعي على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى .

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن تبعه ؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حشهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به - فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث (٢) : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقة الجارية - كالوقف

(١) أخرجه مسلم في : ٢٥ - كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ (طبعقنا) .

(٢) أخرجه النسائي في : ٤٤ - كتاب البيوع ، ١ - باب الحث على الكسب ،

ونحوه - هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال ^(١) تعالى (إِنَّا نَخْنُ نُخَيِّ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ . . .) الآية . والعلم الذي نشره في الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت في الصحيح ^(٢) : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث - قال الرازي : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام في قوله تعالى (لِلْإِنْسَانِ) فإن اللام لعود النافع ، و(على) لعود المضار . نقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه ، في النافع والمضار . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل ، كجموع السلامة تذكر ، إذا اجتمعت الإثبات مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) و(الأوفى) لا يكون إلا في مقابلة الحسنة ، وأما في السيئة فالثلث أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ)

[٤١] (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ)

« وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ » أي يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من (أريت الشيء) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من (رأى) المجرد . أي يراه ، كقوله تعالى ^(٣) (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٥] .

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) « ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، ف (الجزء منصوب بنزع الخافض ، (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يقعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه - كما فى (الكشاف) - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ)

[٤٣] (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ)

[٤٤] (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

[٤٥] (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤٦] (مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ)

[٤٧] (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ)

[٤٨] (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ)

[٤٩] (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ)

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ » أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمخاطب إما عام ، أى إليها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعيد ؛ أو خاص بالنبي صلوات الله عليه ، ففيه تسليية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالالوهية ، بقوله تعالى « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَى^(١) أى خلق قوتى الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعم .

قال الرازى : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعملان ، فلا يقدر أحدهم الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعمل بأمر ، فلا بد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أَمَات من شاء من خلقه ، وأَحْيى من شاء . قال ابن جرير^(٢) : وعنى بقوله (أَحْيَا) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصميمه الروح فيها « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى » أى ابتدع إنشاءهما من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لاتعلم ، كما قال^(٣) (وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أغنى من شاء بالمال . و (أقناه) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى » وهو نجم مضى خاف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَأَنَّهُ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)

[٥١] (وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَى)

[٥٢] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحابى الثانية) .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٦١] .

[٥٣] (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ)

[٥٤] (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ)

[٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ)

[٥٦] (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ)

« وَأَنَّهُ وَ- أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ » يعنى قوم هود. وسميت (الأولى) لتقدمها فى الزمان. « وَنَمُودًا » أى قوم صالح « فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ » أى أشد فى كفرهم « وَأَطْفَىٰ » أى أشد طغياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، فى طول مدته بينهم ، وهى أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَالْمُؤْتَفِكَةَ » أى قرى قوم لوط التى انتفكت بأهلها ، أى انقلبت . « أَهْوَىٰ » أى أهواها على أهلها ودمرها . « فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ » أى من العذاب السماوى الذى صب عليها . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ » أى نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أى ترتب وتشك وتجادل فى أنها ليست من عنده ، وهو الذى أنعم بالإغفاء والإقفاء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم . « هَٰذَا » أى القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ » أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَرَفَتِ الْأَزِفَةَ)

[٥٨] (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

« أَرَفَتِ الْأَزِفَةَ » أى قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام فى (الأزفة) للعهد . وقيل : الأزفة علم بالغلبة للساعة هنا ، لئلا يلزم وصف القريب بالقرب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة في قربهِ ، كما يدل عليه الافتعال في (اقتربت) .

« لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » أى ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله ^(١) (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ) و (كَاشِفَةٌ) صفة محذوف، أى نفس كاشفة، أو حال كاشفة. أو التاء للمبالغة . أو هو مصدر بنى على التانيث و (من دُونِ اللَّهِ) بمعنى غير الله، أو إلا الله. وقيل : المكشف بمعنى الإزالة . أى ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من (كشف الغما) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

[٦٠] (وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

[٦١] (وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ)

[٦٢] (فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبَّدُوا)

(سجدة)
(لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر « تَعْجَبُونَ »

أى : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجىء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيقته الدمع المردار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أى استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أى مفايه من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكره كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم فى آية ^(٢) (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) « وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ » أى لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبي ﷺ غضاباً مبرطمين ، أى : شاخين .

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٩] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهى لغة أهل اليمن .
يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال فى (الإكليل) : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللاهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله (سَمِدُونَ) وفسره السدى بالاستكبار .

« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً فى عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم فى أول السورة .

وروى الإمام أحمد^(١) عن المطلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم . فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسى فأبيت أن أسجد - ولم يكن أسلم يومئذ المطلب - فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه - ورواه النسائى - .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي الثانية) .